﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ١٣٧﴾ [النساء: 137]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَـيْـسَ بَـعْـدَ الْإِيـمَـانِ إِلَّا الضَّلَالُ

لمّا رغَّبَ الله سُبحانَهُ في الْإيمَانِ والدَّوام عليه في قولِهِ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ بيَّنَ فسَادَ طَريقَةِ مَن يَكْفُرُ بَعْدَ إيمانِهِ، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيَهۡدِيَهُمۡ﴾: مِنْهُ قولُهم: هَدَيْتُهُ الطَّريقَ، أي: تقدَّمْتُهُ لأُرْشِدَهُ، ومِنْهُ الهُدَى: ضدُّ الضَّلالَةِ[2].

والهدايةُ شَرْعًا ضربَانِ:

أحدُهما: هدايةُ إرشَادٍ ودِلالَةٍ.

والآخَرُ: هدايةُ توفيقٍ وإلهامٍ[3].

والمُرَادُ بالهدايَةِ المنفيَّةِ في قَوْلِ الله سُبحانَهُ: ﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾ هدايةُ التَّوفيقِ، وإلَّا فإنَّ هدايةَ الإرشَادِ والدِّلالَةِ حَاصِلَةٌ لَهُم، وبِهَا تَقُوم الحُجَّةُ عَلَيْهِم[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخْبِرُ الله تَعالَى أنَّ مَن تكرّر مِنْهُمُ الكُفْرُ بعدَ الْإيمَانِ، بِأَنْ آمنُوا

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/244، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/99، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/513.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).
(3) البرَّاك، شرح العقيدة الطَّحاويَّة، ص: 79.
(4) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 209.

ثمّ ارْتَدُّوا عَنْهُ إلى الكفرِ، ثمّ آمَنُوا، ثمّ ارتدّوا عَنْهُ، وأصَرُّوا على كفرهِمْ ومَاتُوا عَلَى هذا الكفرِ؛ لَم يَكُنِ اللّه تعالَى ليغفرَ لَهُمْ ذُنُوبَهم، ولا لِيُوفِّقهم إلَى الطّريق المُسْتَقِيم المُوَصِّل إليه سُبحانَهُ[1].

عَاقِبَةُ الْإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ الْحِرْمَانُ مِنْ مَغْفِرَةِ اللهِ تَعَالَى وَهِدَايَتِهِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْمَوْصُولِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

وفي التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ توسيعٌ للمعَاني القرآنيَّةِ، فَيَصْدُقُ على اليهودِ الّذين تقدَّم ذِكْرُهُم في سورتَي البقرةِ وآلِ عمران، وعلى خصوصِ مَن آمنَ ثمّ عَبَدَ العِجْلَ، ثمّ عَبَدَ العُزَيْرَ، وعلى المنافقين[2]، وكلُّ ذلك لا يمتنعُ ولا يَتَعَانَدُ، فكلُّ مَنْ صَدَقَتْ عليه جملةُ الصّلةِ؛ كان داخلًا في استحقاقِ العقوبةِ، وهذا مِن الإيجازِ البديعِ.

تَعْلِيلُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِلْأَحْكَامِ؛ لِتَخْرُجَ مَخْرَجَ الْعُمُومِ

سِرُّ عَطْفِ الْجُمَلِ بِـ ﴿ثُمَّ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾:

عُطِفَت جُملُ الصِّلَةِ في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ بـ ﴿ثُمَّ﴾ وهو حرفٌ دالٌّ على التَّراخِي الزَّمني يُخبِر عن حال المنافقين في أمم متعددة، وكأنه يقول (إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بالتوراة وبموسى ثُمَّ كَفَرُوا من بعد مُوسى ثُمَّ آمَنُوا بعيسى - ﷺ - وبالإنجيل ثُمَّ كَفَرُوا من بعده ثُمَّ ازْدادُوا كُفْرًا بمحمد - ﷺ - وبالقرآن لَمْ يَكُنِ اللّه لِيَغْفِرَ لَهُمْ على ذلك)

بَيَانُ أَنَّ انْحِرَافَ الْمُرْتَدِّينَ كَانَ عَنْ قَصْدٍ مِنْهُمْ لِلضَّلَالِ

وجاءت الأفعَالُ في هذه الآيةِ بصيغةِ المُضِيِّ؛ للدِّلالةِ على تَحَقُّقِ وقُوعِهَا مِنْهُمْ.

للإيمَاءِ إلى ثبات حال المنافقين على اختلاف الأزمان والأمم

وفي بِنْيَةِ الجُمْلةِ بِهَذَا البِنَاءِ إعلانٌ لِاسْتِحْقَاقِهِمُ الْحُكْمَ، فمعنَى

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/100.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 7/147، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/124 - 125، والنّيسابوري، إيجاز البيان: 1/258، وابن جزي، التسهيل: 1/213، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/99، والثعالبي، الجواهر الحسان: 2/316.

قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾، أنّ "مَن تكرّرَ منه الإيمانُ بَعْدَ الكفرِ، والكفرُ بعدَ الْإيمَانِ مرّاتٍ كثيرةً؛ يدلُّ على أنّه لا وَقْعَ لِلْإيمَانِ فِي قَلْبِه، ومَن كانَ كذَلِكَ لا يَكُونُ مُؤْمِنًا باللّه إيمانًا صَحيحًا"[1].

جَمَالِيَّةُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾:

زِيَــادَةُ تَبْشِيعِ صُورَةِ الْمُرْتَدِّينَ

بين قولِه تعالَى: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ طباقُ إيجابٍ، وَتَكْرَارُ الطِّباقِ بينَ ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿كَفَرُواْ﴾ يُصَوِّرُ تذبذبَهم في الدِّين، وذَلِكَ مِمَّا يُسْهِمُ في زِيَادَةِ تَبْشِيعِ صُورَتِهم وقُبْحِ فِكْرَتِهم.

دِلَالَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾:

مِنْ أَسْبَابِ الرِّدَّةِ عَدَمُ الرُّسُوخِ فِي الْإِيمَانِ

وُصِفَ المتنقِّلُون بينَ الإيمانِ والكفرِ بالازديادِ في الكفرِ، فقال ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾، وفي هذا إشعارٌ بأنَّ ازدِيَادَهُمْ في الكفرِ هُوَ اسْتِهْزَاؤُهم وتَلَاعُبُهم بِالْإِيمَانِ قَصْدًا[2].

والْمُرَادُ مَنْ تكرّرَ مِنْهُمُ الكفرُ بعدَ الإيمانِ، وليس المقصودُ بيانَ عددٍ خاصٍّ، وإنَّما المرادُ مطلقُ التَّكرارِ، وفي ذلك إيمَاءٌ بتردُّدِهم وتمرُّدِهم على الحقِّ[3].

وفي وصفِهِمْ بالازديادِ والكفرِ إشارَةٌ إلى الشُّبه التي تغتَالُهمْ بعدَ كُلِّ إيمَانٍ؛ لعدَمِ رسوخِهِمْ فيه، فَهُم يَكْفُرُونَ بأسبَابٍ جَدِيدَةٍ، فيَزِيدُ كُفْرُهُم في كلّ مرَّةٍ.

نُكْتَةُ إِيثَارِ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿ٱزۡدَادُواْ﴾ دُونَ (زَادُوا):

زِيَــادَةُ كُفْرِهِمْ مَعَ كُلِّ رِدَّةٍ عَنِ الْإِيمَانِ

أُوثِرَ التّعبيرُ بالفعلِ (ازْدَادَ) في قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ بِصِيغَةِ الِافْتِعَالِ الدّالّةِ علَى الْمُبَالَغَةِ في إتيان الفعل، دونَ التَّعبير بالفعلِ (زَادَ)؛ لِلدِّلالَةِ علَى مبالغتهم في كُفْرِهِمْ وتَرَدُّدِهِمْ، وهُو

(1) الخازن، لباب التأويل: 1/438.
(2) الخازن، لباب التأويل: 1/438.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/513.

مشْعِرٌ بأنّ هذا الازديادَ في الكفْرِ حاصِلٌ معَ كُلِّ ردَّةٍ عَنِ الإيمَانِ، وفيهِ إيماءٌ إلى اسْتِمْرَارِهِم علَى الْكُفْرِ واطّرَادِ ازْدِيَادِهِمْ فِيهِ.

سرُّ نفي الْكَوْنِ دُونَ نَفْيِ الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾:

دخولُ النّفي على فعل الكَوْنِ في قولِهِ تَعَالَى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ فيهِ مبالغةٌ في النّفْيِ.

نَفْيُ الْمَغْفِرَةِ وَالْهِدَايَةِ عَنْهُمْ نَفْيًا مُؤَكَّدًا مُبَالَغًا فِيهِ؛ بِسَبَبِ شِدَّةِ كُفْرِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَيْهِ

وَاللّامُ في ﴿لِيَغْفِرَ﴾ لامُ الجحودِ، والجحودُ أبلغُ النّفْيِ، فالنّفيُ داخلٌ على إرادةِ المغفرةِ وإرادةِ الهدَايَةِ، ونفيُ إرادتهمَا أبلغُ من نَفْيِ المغفرةِ والهدايةِ، "فَفَرقٌ بَينَ: لَم يَكُن زَيدٌ يَقُومُ، وبَينَ لَم يَكُن زَيدٌ لِيَقُومَ؛ فَالأَوَّلُ لَيسَ فِيهِ إلَّا انتِفَاءُ القِيَامِ، والثَّانِي فِيهِ انتِفَاءُ الإِرَادَةِ والإِيتَاءِ لِلقِيَامِ، ويَلزَمُ مِنَ انتِفَاءِ إِرَادَةِ القِيَامِ نَفيُ القِيَامِ"[1]، وعليه فقولُهُ تعالى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ يقتضِي "أنَّ هؤلاءِ مختومٌ علَيهم مِنْ أوَّلِ أمرهم؛ ولذلك تردَّدوا، ولَيسَتْ هذه العبارةُ مِثلَ أن يقول: لاَ يَغفِرُ اللّه لَهُم، بل هي أشَدُّ، فتأمَّل الفَرقَ بينَ العبارَتَينِ؛ فإنّه من دقيقِ غَرَائِبِ الفَصَاحَةِ الَّتي في كتابِ اللّه سبحانه"[2].

بَلَاغَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾:

هذا الحسمُ والحَتْمُ في النّظْمِ اقْتَضَى عندَ جُمْهُورِ العلماءِ تقديرَ محذوفٍ في قولِهِ تَعَالى: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: ثمَّ ماتُوا على الكفرِ، استنادًا إلى ما هُوَ "مَعلُومٌ من هَذِهِ الشّرِيعَةِ؛ أَنَّهُ لَو آمَنَ وَكَفَرَ مِرَارًا، ثُمَّ تَابَ عَنِ الكُفرِ وَآمَنَ وَوَافَى تَائِبًا، أَنَّهُ مَغفُورٌ لَهُ مَا جَنَاهُ في كُفْرِهِ السَّابِقِ، وإِنْ تَرَدَّدَ فِيهِ مِرَارًا"[3]، وحُذِفَ من الكلامِ ما يُفيدُ ترتُّبَ الجزاءِ على الموتِ على الكفْرِ؛ للمبالَغَةِ في التَّنفيرِ من الرِّدَّةِ، حتَّى كأنَّ شأنَ المرتدِّ أن يموتَ على كُفْرِهِ.

الْمُبَالَغَةُ فِي التَّنْفِيرِ مِنَ الرِّدَّةِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/100.
(2) الثعالبي، الجواهر الحسان: 2/317.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/100.

ويجُوزُ حَمْلُ الْجُمْلَةِ على قومٍ مُعَيَّنِين عَلِمَ اللّه تعالَى مِنْهُمْ عدَمَ الهدايةِ؛ لأنّ مَن كانَ هذا حالَه؛ لا يُرجَى مِنْهُ الثّباتُ على الْإيمَانِ.

تَعْرِيفُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْعَلَمِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾:

انْتِفَاءُ الْمَغْفِرَةِ عَلَى وَجْهِ الْقَطْعِ وَالْجَزْمِ لِمَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ

عُرِّف المسنَد إليه بالعلميَّةِ في قوله تعالَى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ فجيءَ بالاسم الأحسَنِ (اللّه) لما فيه معنى الألوهيَّةِ، وفي التَّصريح بعُنْوَانِ الألوهيّةِ إِضْفَاءُ الْهَيْبَةِ والعَظَمَةِ على هذَا الحُكْمِ.

نُكْتَةِ مَجِيءِ الْمُسْنَدِ جُمْلَةً فِعْلِيَّةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾:

لَا مَطْمَعَ لِلْكَافِرِ فِي مَغْفِرَةِ اللهِ تَعَالَى وَهِدَايَتِهِ

جاءَ المسندُ في قولِهِ جلّ شأنُهُ: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ جملةً فعليةً فِعْلُها مُضَارِعٌ مَسْبُوقٌ بـ (لَمْ) النّافية.

دِلَالَةُ نَفْيِ الْمَغْفِرَةِ وَالْهِدَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾:

نَفْيُ الْمَغْفِرَةِ وَالْهِدَايَةِ يُرَادُ بِهِ نَفْيُ مَلْزُومِهِمَا وَهُوَ الْإِيمَانُ الْخَالِصُ

عُبِّر بنفي المغفرَةِ والهدايَةِ في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ عن نَفْيِ مَلْزُومِهِمَا؛ وهو الإيمَانُ الخالِصُ الثّابتُ، والمرادُ: إنّ مَنْ تكرّرَتْ مِنْهم الرِّدَّةُ، وعُهِد مِنْهُمْ الازْدِيَادُ فِي الْكُفْرِ وَالْإِصْرَارُ عَلَيْهِ، فهؤلاء يُسْتَبْعَدُ مِنْهُمْ أَن يصْدُرَ مِنْهُمْ مَا يَسْتَحِقُّونَ بِهِ مغفرةَ اللّه تعالَى وهدايتَهُ[1]؛ لأنَّ اللّه تعالى يَغْفِرُ لكلّ مُسْتَغْفِرٍ ويَقْبَلُ التّوبةَ عَنِ عِبَادِهِ، ولكنَّ الآيةَ خرجتْ مخرجَ الغالبِ؛ وهو أنَّ من كانَتْ حاله الاضطرابَ وكثرة التَّنَقُّلِ من الإسلَام إلى الكُفْرِ؛ لم يكُنْ للإيمَانِ في قلبِهِ وقْعٌ ورُسوخٌ، وأنّه يَمُوتُ علَى الْكُفْرِ، وَلَيْسَ المَعْنَى أنّه لو أتَى بالإيمَانِ الصَّحِيحِ لَم يَكُنْ مقبولًا، بلِ المرادُ الاسْتِبْعَادُ والاستِغْرَابُ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/577، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/103.

وهذا كحال الفَاسِق الذِي يَتُوبُ، ثُمّ يَرْجِعُ إلى الفِسْقِ، ثُمَّ يَتُوبُ ثمّ يَرْجِعُ؛ فإنّه غالبَ حالِهِ أن يموت على الفِسْقِ ولا يُرْجَى له الثَّباتُ[1].

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ (السَّبِيلِ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾:

نُكِّرَ لفظُ السَّبيلِ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ للدِّلالَةِ عَلَى تَخْلِيَتِهِمْ وأَنْفُسَهُم بالكلّيَّةِ؛ فهُوَ لا يَهْدِيهم أيَّ سَبيلٍ فيهِ هِدَايَةٌ؛ لكون السَّبيلِ واردًا في سياقِ النَّفْيِ، فقَدْ أَوْكَلَهُم إلَى أَنْفُسِهِم؛ مبالغَةً في نَفْيِ الْهِدَايَةِ عَنْهُمْ.

مَنْ تَرَكَ الثَّبَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ؛ أَوْكَلَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى نَفْسِهِ فَيَضِلُّ

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/514.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 8 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-60-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 8 : سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-60-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»